أحاديث إصلاح القلوب

(٤٠)

حسن الظن بالله

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)) .

وروى الإمام أحمد عن واثلة ابن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ؛ فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ)) .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((قَالَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ؛ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ)) .

وروى الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاث يقول : ((لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ)) .

ورواه أحمد وزاد في روايته (((فَإِنَّ قَوْمًا قَدْ أَرْدَاهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ) ؛ فقال الله: { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ }[فصلت:٢٣])) .

إن من عبوديات القلب العظيمة وواجبات الإيمان الجليلة «حُسْنَ الظن بالله» ؛ فإن حسن الظن به جلَّ في علاه مقامٌ عليٌّ من مقامات الدين الرفيعة ، والله عز وجل لا يخيِّب عبدًا أحسن الظن به ، فإنه جلَّ وعلا لا يخيِّب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل ، { فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود:١١٥].

ولقد تكاثرت الدلائل على عِظم شأن حسن الظن بالله وما يترتب عليه من المقامات الحميدة والآثار العظيمة والثمار المباركة في الدنيا والآخرة، وعظم شأنه ، وأنه عبودية عظيمة وطاعة جليلة ، وكلما قوي أثمر لصاحبه الثمار العظيمة والآثار المباركة والعوائد الحميدة في الدنيا والآخرة.

وحُسن الظن بالله هو فرعٌ عن المعرفة بالله ؛ فإنَّ العبد كلما كان أعظم معرفةً بالله وبأسمائه وصفاته ، وأنه جلَّ وعلا وسع كل شي رحمةً وعلما ، وأنه سبحانه غفورٌ رحيم ، توابٌ كريم ، جوادٌ محسِن ، يقبل التوبة من عباده

ويعفو عن السيئات ، وأنه لا يتعاظمه ذنب ، وأنه واسع المغفرة ، إلى غير ذلكم من صفاته العظيمة ونعوته الجليلة ؛ فكلما ازداد العبد معرفةً بالله زاد حظه ونصيبه من حسن ظنه به، لأن منشأ حسن الظن ومبناه على حُسن المعرفة بالله جل وعلا وأسمائه وصفاته . فكل اسم من أسماء الله تبارك وتعالى وكل صفة من صفاته جل وعلا له عبودية تخصه وحسن ظن يخصه ، وهذا أمر ينبغي أن يعلم وأن يُفقه في هذا الباب.

فإذا علم المسلم أن من أسماء الله تبارك وتعالى «الغفار» أحسن الظن به في استغفاره وإكثاره من الاستغفار وعنايته به وملازمته له أن يغفر ذنبه وأن وأن يتجاوز عن زلته وأن يغفر خطيئته.

وإذا علم أن من أسماء الله تبارك وتعالى « التواب » وأنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات أحسن الظن به أن يتوب عليه مهما كان ذنبه ومهما كانت خطيئته وجرمه ، وإذا كان خطؤه عظيما فالله عز وجل واسع المغفرة يتوب على من تاب مهما كانت ذنوبه ومهما كانت خطاياه كما قال الله سبحانه وتعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الزمر:٥٣] .

وإذا أصابته بعض المصائب أو الاسقام أو الأوجاع أحسِن الظن بالله وأنه الشافي لا شفاء إلا شفاؤه جل في علاه ، كما قال خليل الرحمن عليه صلوات

الله وسلامه فيما ذكره الله عنه: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[الشعراء:٨٠] ، فهذا من حسن الظن بالله ، فمهما كانت شدة المرء فليحسن الظن بالله تبارك وتعالى أن يشفيه ويكشف كربه ، وإذا دعا بالدعاء المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ البَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا» أحسِن الظن بالله تبارك وتعالى أن يجيبه وأن يُذهب عنه ما أصابه من وجعٍ أو ألم وشدة، وهو القائل جل في علاه: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[غافر:٦٠] ، والقائل جل وعلا: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[البقرة:١٨٦] .

وإذا قلَّت ذات يده وأصابه من العوز والفقر والحاجة ما أصابه أحسِن الظن بالله عز وجل وأنه واسع الفضل جزيل المنّ وأن ما به من نعمة فمن الله تبارك وتعالى .

وبهذا يعلم أن حسن الظن بالله تبارك وتعالى يصاحب المؤمن في جميع شؤونه وأحواله وجميع عباداته وأعماله.

ومبناه على عقيدة راسخة وإيمان قوي في قلب المؤمن وثقة بالله تبارك وتعالى ، ولا يحسن عبدٌ الظن بربه ويكون صادقًا في حسن ظنه به سبحانه إلا أعطاه الله ظنه ، وذلك أن الخير كله بيد الله سبحانه وتعالى ، فكل ما يرجوه

المرء ويؤمله ويريده لنفسه أو لغيره بيده عز وجل.

وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء يسأله ، {يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن}، "فأكف جميع العالم ممتدة إليه بالطلب والسؤال ويده مبسوطة لهم بالعطاء والنوال يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار والفجار له كل كمال ومنه كل خير له الحمد كله وله الثناء كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله تبارك اسمه وتباركت أوصافه وتباركت أفعاله وتباركت ذاته فالبركة كلها له ومنه لا يتعاظمه خير سئله ولا تنقص خزائنه على كثرة عطائه وبذله ". ولو أن أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلا منهم ما سأل ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

ومقام المعرفة بالله سبحانه وتعالى وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا مقامٌ عظيم له ثماره العظيمة وآثاره المباركة وعوائده الحميدة على العبد المؤمن في دنياه وأخراه ؛ ولهذا فإن من أعظم ما ينمي في العبد حسن الظن بالله تبارك وتعالى أن يعنى بهذا الباب -باب المعرفة بالله- .

وحسن الظن بالله معدودٌ في أعظم المنن وأجل العطايا ؛ روى ابن أبي الدنيا في كتابه «حُسن الظن بالله» عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود

رضي الله عنه أنه قال : «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَنّه ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ» .

وقد تقدم في الحديث القدسي قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ؛ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ)) ، أي أن للعبد ما ظن بربه جل في علاه ، بالغفران له إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية، وتأميل العفو إذا طلب العفو فإن ظن بالله أنه يُقيل عثرته ويغفر زلته ويقبل توبته ويرفع درجته ويُعظم مثوبته فله هذا الظن بربه جل في علاه ، ومن ظن خلاف ذلك فله ما ظن بربه جل في علاه ، فإن للعبد في هذا المقام ما ظنه بربه ؛ فإن ظن الخير فله الخير ، وإن ظن خلاف ذلك فله ما ظن .

ولهذا ينبغي للعبد أن يكون حَسَن الظن بالله جل وعلا وأن لا يتعاظم ذنبا أن يتوب منه ، فإن الله عز وجل لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا يتعاظمه حاجة سُئلها جل في علاه أن يعطيها، فإن عطاءه كلام ومنعه كلام {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }[يس:٨٢] .

وحُسن الظن بالله لا يكون مع التفريط والإضاعة والإهمال وتتبع الملاذ والشهوات ، وإنما يكون مع حُسن العمل وتمام الإقبال على الله جل وعلا ،

وأما المسيء المضيِّع المفرِّط المرتكب للمحرمات المقترف للآثام فإن آثامه وخطاياه تحول بينه وبين حسن الظن بالله ، قال الحسن البصري رحمه الله : «إنَّ المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإنَّ الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل» .

قال ابن الجوزي رحمه الله: "اعلم أن صدق رجاء المؤمن لفضل الله عز وجل وجوده يوجب حسن الظن به وليس حسن الظن به ما يعتقده الجهال من الرجاء مع الإصرار على المعاصي وإنما مثلهم في ذلك كمثل من رجا حصادا وما زرع أو ولدا وما نكح وإنما العارف بالله عز وجل يتوب ويرجو القبول ويطيع ويرجو الثواب"، ثم نقل عن الحسن رحمه الله أنه قال: "إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة يقول إني لحسن الظن بربي وكذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل".

فينبغي للعبد الناصح لنفسه أن يكون مجاهدًا لها على حسن العمل المثمر لحسن الظن بالله، {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[العنكبوت:٦٩] .

وكيف يكون المضيع المفرِّط محسنًا الظن بربه !! وهو عن ربه ومولاه شارد ، وعن طاعته مبتعد ، وعن أبواب رحمته ومغفرته معرض ؛ فلا يكون حُسن الظن بالله إلا مع حسن الإقبال على الله جل وعلا ، والواجب على عبد

الله المؤمن أن يتقي الله عز وجل ربه ، وأن لا تسيطر عليه ذنوبه وخطاياه ، وأن لا يتعاظم خطاياه في جنب مغفرة الله ، فإنَّ الله لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره ، وليحذر من اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، وليُحسِن في الإقبال على الله عز وجل تائبًا منيبا وهو يحسن الظن بربه أن يغفر له زلته ، وأن يقبل توبته ، وأن يعفو عن إساءته، وأن يرفع درجته ، وليتدارك نفسه بذلك قبل أن يفجأه الموت وهو على حالةٍ لا يسرُّه أن يلقى الله جل وعلا بها .

وإنَّ من أشد الذنوب وأعظمها ضررا على الإنسان سوء الظن بالله جل وعلا ؛ فإنَّ الله عز وجل ذكر سوء الظن به وصفًا للمشركين والمنافقين ، ولم يتوعد بالعقاب أحدا أعظم ممن ظن به ظن السوء ، قال الله تعالى:{ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[الفتح:٦] .

وسوء الظن بالله جل وعلا من أعظم أسباب الردى والخسران ، قال الله تعالى: { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت:٢٣-٢٤] .

وسوء الظن بالله من وراء الذنوب والآثام ؛ فإذا ساء ظن العبد بربه ساء

عمله ، وإذا حسُن ظنه بربه حسُن عمله . ومداواة النفس في هذا المقام : أن يقبِل العبد على الله عز وجل إيمانًا وتوكلا ، ومعرفة بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وأن يجاهد نفسه على تحقيق ما تقتضيه هذه المعرفة من عبودية لله عز وجل ، فإن كل اسمٍ لله وكل صفةٍ له لها من العبودية وحسن الظن بالله ما تقتضيه تلك الأسماء والصفات .

وبوابة الدخول إلى هذا المقام العظيم هي التوبة الصادقة إلى الله جل وعلا من كل ذنب وخطيئة ، {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[النور:٣١] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أي توبةً نصوحا نابعةً من قلوبكم ترجون بها رحمة ربكم جل في علاه ، ففلاحكم وسعادتكم في توبتكم إلى ربكم عز وجل .

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لحسن التوبة وحسن العمل وحسن الظن بالله عز وجل ، وأن يغفر لنا أجمعين ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيما ، وأن يصلح لنا شأننا كله وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.